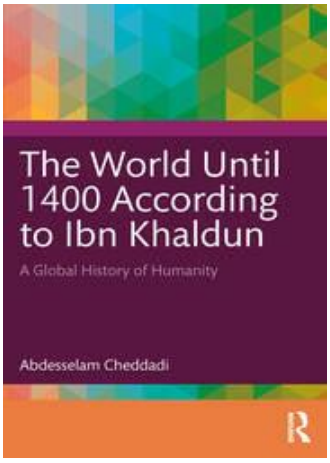


Abdesselam Cheddadi.- ***The World until 1400 According to Ibn Khaldun A Global History of Humanity*** **(New York: Routledge, 2025), 220 p.**

عبد السلام الشدادي-. العالم حتى سنة 1400 من خلال ابن خلدون، تاريخ عالمي للبشرية (نيويورك: روتليدج، 2025)، 220 ص.

مازالت الدراسات الجديدة مسترسلة عن تجربة عبد الرحمن بن خلدون الرائدة والفريدة، حيث صدرت حولها عدة مؤلفات جديدة في بداية هذه السنة وفي السنة الماضية. ومن بينها الكتاب موضوع هذا العرض المقتضب الذي وضعه عبد السلام الشدادي بعنوان: **العالم حتى سنة 1400 من خلال ابن خلدون: تاريخ عالمي للبشرية**، الصادر سنة 2025 في 220 صفحة، حيث قدم فيه رؤية متجددة لعمل ابن خلدون. فخلافا لعدد من الدراسات التي اهتمت بإبراز دور هذا العلامة المُسلم في إبداع مفهوم العصبية ونظرية الدورات وغيرها من الجوانب الاجتماعية، يركز الشدادي على البعد العالمي في فكر هذا العلامة من خلال كتابه **العبر**. ويُقارب الشدادي محاولة ابن خلدون كتابة تاريخ عالمي للبشرية وفق تصور علمي ليس بعيدا عما هو معتمد في العصر الحديث، من خلال الجمع بين الأبعاد الأنثربولوجية والسوسيولوجية والتاريخية في أعماله. ورغم التحليلات والتأملات التي قدمها ابن خلدون، والتي تكتسي طابعا عالميا وعلى درجة عالية من العلمية، إلا أن محاولته كتابة تاريخ عالمي حقيقي قد باءت بالفشل حسب الشدادي لعدة اعتبارات ذاتية وموضوعية. ومع ذلك تبقى محاولته على قدر كبير من الأهمية في سعينا الحثيث لفهم عالم اليوم وكتابة تاريخ عالمي كما يؤكد ذلك المؤلف.

يَستمد الكتاب أهميته من ثلاثة اعتبارات أساسية، يرتبط الأول منها بطبيعة ابن خلدون، العلامة المُفكر فيه وعمق وشمولية كتابه **العبر**، إذ يصنف كأحد أعظم المنظرين الاجتماعيين على مر العصور، كما يمثل أحد أفضل مركبي المعرفة التاريخية، حتى وصف أنه سابق لعصره. أما الاعتبار الثاني، فيتعلق بالباحث عبد السلام الشدادي وطبيعة اتصاله بأعمال ابن خلدون، خاصة المقدمة؛ إذ يعد رائد الدراسات الخلدونية، بالنظر لاحتكاكه الطويل به، دراسة وتحقيقا وترجمة، وذلك منذ نهاية سبعينيات القرن الماضي. وقد أنجز حوله العديد من الدراسات الأكاديمية المعمقة، كما استطاع أن يخاطب جمهورا دوليا واسعا عبر الكتابة بلغات مختلفة، منها العربية والفرنسية والإنجليزية. مما يجعل الكتاب موضوع المراجعة نتاج تجربة طويلة من التأمل والحوار مع فكر ابن خلدون. أما الاعتبار الثالث، وهو الأكثر أهمية، فيتمثل في أطروحة الكتاب نفسه المتمثلة في مقاربة ابن خلدون على ضوء منظور التاريخ العالمي الحديث. المنظور الذي يركز على تجاوز البعد الوطني القومي في دراسة التاريخ والعبور به إلى النطاق العالمي الرحب، عبر وضع الأحداث في سياق عالمي عابر

للحدود، مع التركيز على الترابطات والتفاعلات بين مختلف مكونات العالم وأطرافه بعيدا عن المركزية الغربية. ويبدو ممن خلال دراسة الشدادي أن هذا المنظور نفسه كان حاضرا عند ابن خلدون، مما يجعله أول من وضع الخطوط الأولى لما يسمى اليوم بالتاريخ العالمي.

يستهل الكتاب بتصدير يوجين نيوتن أندرسون، الأستاذ الفخري للأنثربولوجية في جامعة كاليفورينا، الذي يشدد على أهمية العمل وعمقه، واصفا إياه أنه الوحيد المتاح باللغة الانجليزية، الذي يناقش تفكير ابن خلدون بالتفصيل ويلخص ديناميته في التاريخ، في مقابل دراسات كثيرة ركزت على الرجل أكثر من أفكاره. وقد قسم الشدادي عمله إلى خمسة أقسام، خصص الأقسام الأربعة الأولى للتفصيل في المحتوى المنهجي والمفاهيمي والتاريخي في أعمال ابن خلدون بطريقة جديدة وشمولية، بينما بسط في القسم الخامس مجموعة من الاستنتاجات التي استخلصها من الأقسام الأربعة السابقة، لا سيما المنهجية المتبعة ومكانة ابن خلدون وعمله من منظور التاريخ العالمي.

ينطلق الشدادي في القسم الأول من مجموعة من التساؤلات حول كيفية مقاربة ابن خلدون وعمله في علاقته بمفاهيم الماضي البشري وكتابة التاريخ كما مورست في العالم في عصره، وحول الأهداف التي رمى ابن خلدون لتحقيقها من خلال عمله **العبر**، ولا سيما مشروعه لنهج جديد للتاريخ كعلم، وإعادة كتابة التاريخ على هذا الأساس. لينتقل بعدها إلى تتبع ظهور منظور التاريخ العالمي باعتباره نتاج تطور طويل، ليبرز بقوة في تسعينيات القرن العشرين. فمع تزايد الترابط والتواصل بين مجتمعات العالم في إطار العولمة، تغير إطار الكتابة التاريخية بشكل جذري، وأصبح هذا المنظور الجديد يفرض نفسه، فتنامت الدراسات والأبحاث وفقه بصورة كبيرة. وبالرغم من إشادته بهذا النهج الجديد، إلا أنه يتوقف عند بعض تحديات كتابة تاريخ عالمي حقيقي في عالم معولم ومتفاوت في مستوى امتلاك وسائل القوة. ولأن ابن خلدون مؤرخ ينتمي لفترة ما قبل الحداثة، فقد حاول الشدادي تأطيره وعمله من وجهة نظر التاريخ العالمي في سياق الثقافة الإسلامية، وفي سياق أوسع من تاريخ العصر المجزّإ، تجنبا للوقوع في مزالق إسقاط نموذج التأريخ الغربي الحديث على مفكر من عصر ما قبل الحداثة. كما حاول الإشارة إلى الوحدة الزمنية المكانية التي عاش فيها، والتي تتحدد في العالم الإسلامي كوحدة ممتدة على نطاقات واسعة ولفترات مستمرة، مما يجعله وحدة مكانية وزمانية ذات صلة. مبرزا أن مشروع ابن خلدون كان هو كتابة تاريخ للعالم يركز على المعطيات المتعلقة بالجوانب الاجتماعية والسياسية والدينية للمجتمعات البشرية.

يواصل الشدادي تفسير محاولة ابن خلدون كتابة تاريخ عالمي وفق تصور علمي، عبر جمع ابن خلدون اللافت بين الأبعاد الأنثربولوجية والاجتماعية والتاريخية في عمل واحد. ففي القسم الثاني يفكك الشدادي تمثلات وتصورات ابن خلدون الانثروبولوجية التي تحدد حياة البشر وتطور الحضارة، وفي مقدمتها الجغرافيا والبيئة والخارق للطبيعة. وإذا كان ابن خلدون واضحا بشأن تأثير الجغرافيا على تطور الحضارة وامتدادها، وتأثير البيئة على السمات الجسدية والأخلاقية للبشر، إلا أنه يظل غامضا للغاية بشأن وطبيعة ما هو خارق للطبيعة،

على الرغم من أنه يعتبر عالم ما وراء الطبيعة حقيقيا وواضحا مثل العالم الطبيعي والمادي، غير أنه يجعل الوصول إليه مخصوصا بنوع من الرجال دون تقديم تفسير لذلك. كما يدرس ابن خلدون آليات الحضارة من زوايا ثلاث، هي الاجتماع والسلطة والأنشطة الاقتصادية، فالحاجة إلى الاجتماع تفسر بسبب مادي مرتبط بطبيعة الإنسان وسبب متعال مرتبط بالإرادة الإلهية. أما الحاجة للسلطة فتفسر بسبب بشري مرتبط بالظلم والعداونية النابعة من الطبيعة الحيوانية للإنسان، بينما تختزل ضرورة الأنشطة الاقتصادية في سبب مزدوج إنساني مرتبط بحاجة الإنسان إلى الحصول على قوت يومه، وخارق للطبيعة مرتبط بحقيقة أن الله وضع الطبيعة تحت تصرف الإنسان، وفقا لابن خلدون.

يوضح الشدادي في القسم الثالث أن ابن خلدون لم يكتف بوضع مبادئ الانثروبولوجيا العامة فحسب، بل قدم عرضا لكيفية عمل المجتمعات الريفية والحضرية، هذه الثنائية التي تشكل الشكلين الملموسين اللذين تتخذهما الحضارة تاريخيا. كما تتبع دراسة السلطة والتي يعود أصلها إلى المجتمع الريفي. ثم أتى على دراسة المجتمع الحضري، ثم دراسة الأنشطة الاقتصادية والثقافية المرتبطة به. مؤكدا في الوقت نفسه على المنهج الاجتماعي في عمل ابن خلدون خاصة في المقدمة، حيث فصل منهجيا بين مجالات المجتمع والسياسة والاقتصاد والثقافة، ورصد التطورات ال خاصة لكل منها. كما يبرز ذلك في تحليلاته وتفسيراته للظواهر التي تهم هذه المجالات المختلفة، بما فيها علم اجتماع الثقافة وعلم اجتماع العلوم، في إطار هدفه العالمي المتمثل في التاريخ العالمي.

في القسم الرابع يقارب الشدادي البعد التاريخي لكتاب **العبر**، باعتباره تاريخًا ذا طابع عالمي. ويحتل هذا البعد مكانه إلى جانب البعدين الآخرين، الأنثروبولوجي والاجتماعي. ويتصل البعد التاريخي بتطور المجتمعات عبر الزمن. وقد اختار الشدادي تتبع سيرورة التطور التاريخي في فكر ابن خلدون في المقدمة بصورة منفصلة عن باقي أجزاء كتاب **العبر**. فعلى مستوى المقدمة يرى أن نقطة الخلق تشكل أبعد نقطة عاد إليها ابن خلدون وفقا للمفهوم اليهودي والمسيحي الذي تبناه الإسلام، وعلى هذا الأساس ومن وجهة النظر هذه، يستنتج الشدادي أن الخلق يتزامن مع بداية الحضارة، وأول علامة الحضارة هي الزراعة؛ وبناء عليه، فتاريخ البشرية يبدأ مع ظهور هذه التقنية. ومن ثم، يعتبر ابن خلدون أن المجتمعات التي لا تمارس الزراعة ليست جزءا من الإنسانية. وهنا يعتبر الشدادي أن ثورة العصر الحجري الحديث لم تكن انقطاعا تكنولوجيا واجتماعيا وسياسيا، فحسب بل كانت ستشكل أيضا انقطاعا في الذاكرة البشرية، كما أنها رؤية ستؤسس انقساما بين المجتمعات التي تعتبر نفسها متحضرة، تبنت شكلا جديدا من الاقتصاد، قائما على الزراعة والثروة الحيوانية وأشكال جديدة من التنظيم الاجتماعي والسياسي، مع تشكيل المدن؛ ثم المجتمعات التي ظلت مرتبطة بأسلوب حياتها كصيادين وجامعين، والتي نظر إليها على أنها دون البشر أو بربرية. كما يوضع جهد ابن خلدون في وضع التسلسلات الزمنية الخاصة بتطور العلوم والتقنيات، ويشرح

أسـباب التغيرات ويؤكد على الانقطاعات والاسـتمرارية موضـحا طموح ابن خلدون لكتابة تاريخ يغطي البشرية جمعاء.

بخصـوص تتبعه للتطور التاريخي على مسـتوى الأجزاء السـردية من العبر يمكن الوقوف عند ثلاث نقط. الأولى مرتبطة بالمعلومات حول الماضي البشـري بالنسـبة للعصـور المبكرة، فابن خلدون يشارك معاصريه في الضعف في قدرة الذاكرة البشرية على العودة إلى ما وراء عتبات معينة. النقطة الثانية تتعلق بالمنهج، حيث يرى الشـدادي أن ابن خلدون اختار الأمم موضـوعا له مبتعدا عن التقاليد اليهودية والمسـيحية والفارسـية وحتى الإسـلامية التي تتخذ من السـلالات والأحداث السـياسـية والعسـكرية ومن الأنبياء والوزراء وأشـياء أخرى موضـوعا لها، وتعرضـها عادة بطريقة حولية. أما النقطة الثالثة فتتعلق بحالة العالم، فالعالم الذي قدمه لنا يهيمن عليه المفهوم الديني اليهودي والمسـيحي كما عدله الإسـلام، خلقه الله ووهبه للبشر، والبشـر فيه متحدون ومشتتون في الآن نفسه، لأنهم من نسل أدم. ما يميز هذا العالم إذن هو الزراعة والدين والعلوم والتقنيات من جهة، والمدينة والدولة من جهة أخرى. ووفقا لهذه المعايير لا توجد حضارات متعددة بل حضارة واحدة، فقط متنوعة وفقا للظروف الجغرافية والبيئية.

في الصـورة التي يقدمها ابن خلدون، يتم التركيز بالأسـاس على ممارسـة السـلطة وتشـكيل الدول، مع التركيز على أبرز الأمم وأكبرها في وقته، وتتمحور حول العرب والبربر. لكن يبدو حسـب الشـدادي أن هذا التركيز لا ينطوي على مبالغة في تقدير الذات فيما يتعلق بالآخرين، وربما باسـتثناء حقيقة التفضـيل الديني. فإن شـحه في ذكر الهند والصـين وتجاهل شعوب الشمال والجنوب لم يكن مقصودا بقدر ما يتصل الأمر بحدود معرفة عصـره، ونقص المعلومات، وربما لأن هذه الشعوب لا تعتبر جزءا من الحضارات الإنسانية في رؤيته.

إن تناول الشـدادي لعمل ابن خلدون وفق مقاربة التاريخ العالمي وإقراره في النهاية بفشل مشـروع ابن خلدون في بناء تاريخ عالمي حقيقي، تستدعي الوقوف عند ثلاثة عناصر تحليلية أساسية، لم يرصدها الشـدادي على مستوى القسـم الخامس فقط، بل يمكن تلمسـها على امتداد فصـول الكتاب بمجمله. تتعلق النقطة الأولى بمؤشرات حضـور التاريخ العالمي في عمل ابن خلدون، والثانية بالمحددات التي حكمت على محاولته بالفشـل، أما الثالثة فتتصـل بتحديات كتابة تاريخ عالمي وفق مبادئ متفق عليها، أو بتعبير آخر الدروس والعبر المسـتقاة من محاولة ابن خلدون للتأسيس لتاريخ عالمي قبل ستة قرون من الآن.

يوفر كتاب **العبر** مؤشرات عديدة تجعل منه تاريخا عالميا، فالكتاب يتألف من ثلاثة أجزاء: الجزء الأول هو ما أسماه المصنف بالمقدمة، ويتناول الجانب المفاهيمي، وهو في الواقع نوع من الانثروبولوجيا العامة للحضـارة الإنسـانية، وعلم اجتماع المجتمعات الحضـرية والرعوية. أما الجزآن الثاني والثالث فيعرضـان سـجلات التاريخ السـياسي للأمم الرئيسـية المعروفة في عصـر ابن خلدون، الثاني يخصصه لعرب المشرق ومن عاصرهم من الأمم والثالث

لعرب وبربر المغرب. وبذلك يكون ابن خلدون بهذين الجزئين من عمله يقدم أول محاولة على الإطلاق لكتابة ما يمكن أن نسميه تاريخا عالميا للبشرية باتباع منهج علمي، ويتأكد هذا أيضا حسب الشدادي من خلال جمع ابن خلدون في نفس العمل بين تاريخ الحدث والتاريخ المفاهيمي، بناء على أساس ثلاثي انثروبولوجي، واجتماعي وتاريخي.

يمكن رصد طموح ابن خلدون لكتابة تاريخ عالمي حسب الشدادي أيضا، من التعريف الذي يقدمه للتاريخ كعلم، إنه ليس أكثر ولا أقل من دراسة الحضارة الإنسانية ككل متحررة من كل أشكال الخصوصية، إنه يطرح أسئلة أنثروبولوجية، بما فيها الظروف الجغرافية والبيئية والروحية والمعرفية المحددة لوجود الحضارة.

فضلا عن ذلك، يظهر الطابع العالمي لتاريخ ابن خلدون حسب الشدادي من خلال التيمة التي اتخذها موضوعا لتاريخه، وهي الأمم والمجتمع البشري والحضارة مبتعدا عن التقاليد اليهودية والمسيحية والفارسية وحتى الإسلامية. وبناء على ذلك يمكن القول إنه يدشن مفهوما جديدا قريبا جدا لما نسميه اليوم بالتاريخ العالمي. والأمر نفسه يمكن تلمسه في تاريخ ابن خلدون عند مناقشة هذا الأخير لعلم اجتماع العلوم، بما يكتسيه هذا الجانب من بعد مجرد وعالمي. إنه يتناوله بصورة أكثر ثراء ومنهجية، بما فيها تصنيف العلوم والتدريس واللغة العلمية ومجتمع العلماء. كما صنف العلوم إلى علوم تقليدية مرتبطة بطبيعة دينية وسياسية وتاريخية، وأخرى عقلانية قائمة فقط على عمل العقل البشري.

في النقطة الثانية، نتوقف عند حدود مشروع ابن خلدون بخصوص كتابة تاريخ عالمي. فلا شك أن تحليلات ابن خلدون وتأملاته في المجتمع البشري تنطوي على طابع عالمي يصب في القالب الحديث لهذا المنظور، لكن ما الذي حمل الشدادي على الحكم على محاولته ومشروعه بالفشل؟

لقد وضع ابن خلدون إطارا عاما لما يمكن أن نسميه تاريخا عالميا، على نحو ما تم التطرق إليه أعلاه، غير أن الشدادي يوضح حدود مشروع ابن خلدون كتابة تاريخ عالمي حتى في زمن ابن خلدون نفسه. ذلك أنه ارتكز على أساسين متجاوزين هما التقليد العلمي والفلسفي اليوناني العربي، والتقليد اللاهوتي الإسلامي. فضلا عن ارتباطه بخلفيته الثقافية وحدود معرفة عصره. كما يسجل الشدادي أن ابن خلدون لم يستطع التحرر من مفاهيم عصره، فعلى الرغم من حرصه إرفاق تحليلاته وتفسيراته بأمثلة متعددة، إلا أن الأمثلة التي يذكر مستقاة من العالم الإسلامي، خاصة المغرب مع بعض الاستثناءات، مع تجاهل العوالم الأخرى مثل مناطق الشمال، وجنوب شرق آسيا، في إحالة على شكل من أشكال المركزية العرقية. كما يظهر بوضوح تفضيله لمعتقداته الدينية؛ فضلا عن الثغرات في معرفة عصره بالمجتمعات الأخرى. لهذا السبب غالبا ما تكون تعميماته مجردة، لكنه في المقابل، عندما يتعلق بالمجتمعات الإسلامية يتحدث بشكل ملموس.

يفسر الشدادي فشل ابن خلدون في كتابة تاريخ عالمي إذن، بطبيعة العصـــر المجزإ الذي عاش فيه، حيث تسـود مجتمعات ليس لها ثقافة مشـتركة أو مصـير مشـترك، ولا منظور واحد للتطور المشـترك؛ بعكس العصر العالمي الذي أصـبحت فيه البشـــــرية غير قادرة على العيش بمعزل عن بعضـها البعض، وأضـحت مترابطة بشـكل متزايد. وعندها لا يصـبح النهج العالمي ممكنا، بل ضروريا. ومن جهة أخرى، ينبه الشـــدادي إلى أن ابن خلدون لم ينجح في جعل التاريخ علما، لكن في محاولته ودون أن يرغب في ذلك بدا ما ابتكره، هو جوهر ما أصـبحنا نسـميه بعد بضـعة قرون العلوم الاجتماعية. في المقابل يقر الشـدادي أن تجربة ابن خلدون في كتابة تاريخ عالمي يمكن أن تمدنا بدروس عديدة حول رؤية التاريخ العالمي اليوم، لا سيما بخصوص المواضيع التي يجب معالجتها في العصـر العالمي، خاصة فيما يتعلق بالأسس الأنثروبولوجية العامة والمكونات الاجتماعية.

تتعلق النقطة التحليلية الثالثة بتحديات كتابة تاريخ عالمي. فمع إشـــادته بالتاريخ العالمي منظورا في الدراســات التاريخية، كونه أضــحى قادرا لأول مرة على احتضــان التاريخ بعمقه الزمني وامتداده المكاني، يفرده الشـــدادي بنقد عميق في مواقع متعددة على امتداد الكتاب؛ وغالبا ما يكون انتقاده للتاريخ العالمي مســبوقا بتســاؤلات نقدية عميقة ومكثفة، تحاول وضـعه ورؤيته في سـياقه العام. حيث يرى أن الشـكل الجديد للتاريخ الذي طور في أوربا وانتشـــر لبقية العالم يمثل مكونا أساسيا في ترسانة القوة التي ظهرت في أوربا، وانتقلت لباقي العالم الغربي واسـتخدمها لترسـيخ هيمنته، والأمر نفسـه بالنسـبة للتاريخ العالمي، الذي يعتبر وســيلة جديدة بين ترســانة القوة الناعمة التي لا يمكن توفرها إلا للقوى الكبرى التي تمتلك الوســائل المادية والفكرية المناســبة. ولأن التاريخ العالمي يشــكل رهانات قوة، فإنه بطبيعة الحال موضـوع جدال. وبالرغم من أن شروط كتابة تاريخ عالمي أضـحت ممكنة بعد توفر شرطي توحيد البشـــــرية والتراكم الهائل للمعرفة، إلا أن هناك أبعادا مفقودة تتعلق بتحقيق أهدافه وهي ثقافية وسـياسـية بالأسـاس، لا سـيما في ظل هيمنة سـياسـية غربية وتهميش فكري لمعظم البشرية، وفي ظل تصورات أحادية الجانب ومتحيزة ايديولوجيا للماضي البشري.

علاوة على ذلك، يرى الشـدادي في التاريخ العالمي تخصـصـا لا يحدد مجاله ومنهجه ومشاكله بدقة، ولا يلتزم بأي قاعدة أو متطلب معين، والأخطر من ذلك أنه يغلق الباب أمام أي إمكانية لعالم مختلف. ومع ذلك لا يســتبعد الشــدادي البحث في رؤية عالمية تشــمل التاريخ البشـــري بأكمله، غير أنه لا يمكن القيام بذلك بحسبه إلا عندما تتوفر الشـــروط الموضــوعية لذلك، منها أن تكون هناك معرفة كافية لإجراء مقارنة دقيقة وقابلة للمراجعة دائما.

من جهة أخرى، يفترض الشدادي أن أي تاريخ عالمي متحيز بالضرورة في ظل الظروف الحالية للنظام العالمي، لكنه يؤكد في المقابل أنه النهج الوحيد الممكن لكتابة التاريخ اليوم. لكن ولتجاوز مشـكلة التحيز السـياسي يقترح الشـدادي نهجا مؤقتا يقوم على أسـاس وضـع

الأسس الفكرية والبراگماتية الممكن استخدامها لبناء مثل هذا التاريخ. وفي هذا الصدد يسطر الشدادي فرضية مفادها أن العالم شهد في القرن 15 انقطاعا جذريا في مسار تاريخه سماه الانقطاع/ التفكك التاريخي العالمي الكبير، وأطلق على الفترة التي سبقته اسم "عصر ما قبل الانفصال" أو العصر المجزإ، وعلى الفترة التي تلته بـ "عصر ما بعد الانفصال" أو العصر العالمي. كما أطلق على المجتمعات التي تشكلت في العصر المجزإ اسم الوحدات المكانية الزمانية ذات الصلة، معتبرا هذا الاسم أكثر دقة وأوسع نطاق من مفاهيم الحضارة ونمط الإنتاج والنظام العالمي. وقد عرف الوحدة المكانية الزمانية ذات الصلة بأنها كيان تاريخي مستقل ومتجانس نسبيا، ما يشكلها كوحدة يمكن أن يكون القوة السياسية أو الثقافة أو الاقتصاد أو مزيجا من الثلاثة، ويمكن أن تشمل الوحدة العديد من الوحدات الفرعية لكنها تظل معتمدة عليها بدرجة وظيفية كبيرة. وشدد الشدادي على أن ما يجب دراسته في العصر المجزإ، وضمنه عصر ابن خلدون، هو المجتمعات من زاوية تجاربها التاريخية الفردية، أكثر من زاوية أنواع العلاقات المتبادلة والتأثيرات، إذ لم تكن هذه الأخيرة قادرة على توحيدها من وجهة نظر اقتصادية وسياسية وثقافية. لذلك يرى أنه من الخطإ دراستها بالنماذج والمفاهيم المستخدمة في العصر العالمي. وعليه، لا يصبح التاريخ العالمي ممكنا إلا في عالم معولم. واعتبر أن أول خطوة في هذا المسار بخصوص العصر المجزإ، هو تحديد الوحدات المكانية الزمانية ذات الصلة، اعتمادا على معايير عديدة، أهمها ما أسماه بوسائل القوة. موضحا أنه أقر فرضية مؤقتة بخصوص ذلك مفادها أن عالم الإسلام قد شكل بالفعل وحدة مكانية زمانية ذات صلة في عصر ما قبل الإنفصال، أي يمثل كيانا متميزا، بالنظر إلى الوعي الذي كان لديه بذاته وكيف رآه علماء الإسلام ومدته وامتداده في المكان، ثم إن ابن خلدون نفسه يؤكد انتمائه إلى هذا العالم في فكره وتصوره. في المقابل، يقر الشدادي عدم قدرته على تحديد وحدات مكانية زمانية أخرى بشكل دقيق، لعدم كفاية المعلومات لديه، وربما هو الإشكال نفسه الذي منع ابن خلدون من مقاربة مجالات أخرى خارج العالم الإسلامي. وبغض النظر عن السياق التاريخي يؤكد الشدادي أن المجتمعات تتميز بما في ذلك مجتمعنا المعولم بنظام معين لوسائل القوة، مشيرا إلى أنه يجب أن يكون هذا الموضوع – أي وسائل القوة – الموضوع الرئيسي للتاريخ العالمي. ولم يفت الشدادي في هذا الصدد، الإشادة بعمل كل من بروديل ووالير شتاين وتشيس دان في دراسة تاريخ التغير الاجتماعي، ويعزي كثيرا من تصوراته إليهم.

ختاما، يمكن القول، إن الشدادي لم يقدم عمل ابن خلدون وفق مقاربة تحليلية معمقة وشاملة لأبرز نظرياته ونماذجه التفسيرية فحسب، بل ربط كل ذلك بمنظور التاريخ العالمي، الشيء الذي أعطى لمنجزه طابعا متجددا لعبر ابن خلدون، بما يفصح عن فرادة هذا الأخير وسبقه لعصره في عدد من الجوانب، بما فيها التاريخ العالمي. إن الاحتكاك الطويل مع عمل ابن خلدون، والفهم العميق لإشكالات التاريخ العالمي، جعلت الشدادي لا يكتفي بتحليل وتفسير مشروع ابن خلدون لكتابة تاريخ عالمي فحسب، بل حاول تقديم فرضيات نظرية لمقاربة التاريخ العالمي بما يتماشى مع درجة الترابط والانقطاع بين المجتمعات، وفق ما

سماه بالعصـــر المجزإ والعصـــر العالمي، مقترحا في الوقت ذاته مفاهيم تفسيرية مثل وسائل القوة والوحدات المكانية الزمانية ذات الصلة. ورغم حكمه على مشـروع ابن خلدون بالفشل، إلا أنه يؤكد في المقابل على أن ما قدمه ابن خلدون من تحليلات مذهلة في ثرائها ودقتها وأهميتها من نواح عديدة، يمكن تطبيقها على جميع مجتمعات عصـــر ما قبل الحداثة، وربما حتى على مجتمعنا الحديث. إذ بالرغم من اســـتناد ابن خلدون في الغالب إلى أمثلة مأخوذة من العالم الإسـلامي، إلا أنه كان يحاول دوما فهم السـمات والهياكل والآليات المثالية الصـالحة لجميع المجتمعات.

المحجوب قدار
كلية الآداب والعلوم الإنسانية،
جامعة محمد الخامس، بالرباط